

التعاون المتبادل لكروبتيكين

بقلم: على أداهم

حاول وهو فى الثمانين من عمره الحافل وقد نالت منه الاسقام ان يقاوم ما عده اعتداء من البلاشفة على الحرية ، وكف عنه زعماء الثورة الأذى والاضطهاد رعاية لمكائنه الفكرية وشهرته العالمية .

وقد أسهم كروبتيكين فى تقدم التفكير العلمى كما أسهم فى مناصرة قضية الحرية ، وكان اشتغاله بالعلم مقترنا على الدوام باهتمامه بمناصرة الحرية ، والفوضوية التى كان يبشر بها كروبتيكين ليست الفوضوية الداعية الى ارتكاب الجرائم وتسوين الاعتداءات ، وانما هى فوضوية بريئة من العنف والقسوة والنزعة الارهابية ، وغايتها اذاعة الاخاء الانسانى والدعوة الى التعاون بين البشر ، وفى آخر كتاب شغل بتأليفه ، وهو كتابه عن الاخلاق الذى تم طبعه بعد وفاته بشر فيه بخلق آداب انسانية تسمو على كل الاعتبارات الطائفية والحزبية وتقوم على أسس التعاون والتضامن الطبيعى بين البشر . والآراء التى بثها كروبتيكين فى كتبه تعكس

بيتر كروبتيكين أحد كبار مفكرى القرن التاسع عشر الموهوبين ، وزعمائه السياسيين البارزين ، وهو الأمير الروسى الذى نبذ الامتيازات التى كان يتمتع بها الأمراء الأثرياء الروسون فى العهد القيصرى ، وآثر مخالطة الفلاحين والعمال والفقراء والمحرومين ليعمل على تنوير أذهانهم ، وتوسيع آفاقهم الفكرية ، وليكون داعية الى الثورة ، ومبشرا بعصر جديد تزول فيه الامتيازات ، ويلغى نظام الطبقات ، وتنمحي الفوارق ويسود بين الناس التعاون بدلا من الكفاح والتناحر ، وهو العالم المتمكن الذى أبى الاسترسال فى الاستجابة لنزعتة العلمية الى آخر المدى ليقضى الكثير من وقته النفيس فى محاربة الطغيان ، والعمل على توطيد العدالة بين بنى الانسان ، وهو الزعيم الفوضوى الذى نقض نظريات توماس هكسلى فى الصراع على البقاء والحرى النزعة الذى أدرك ما تنطوى عليه الماركسية من الغاء للحرية ، وحاول أن يوجه اهتمام العمال فى عصره الى العناية بالحرية ، وقد

الكثير من جوانب نفسه النبيلة، وقد وصفه الناقد الفنى القدير هيربرت ريد بقوله « كروبتكين دمث الاخلاق كريم النفس جم العطف نبيل فى تحريره الحكمة ، وهو ليس من هؤلاء الرجال الذين يثيرون الرعب ، فيه زكاة الرأين والأنباء ، ولكنه فوق كل شىء عالم واسع الاطلاع غزير المعرفة ، وغيره من الفوضويين قد أعطوا الفوضوية حرارة اليقين الثورى وقوة خيال الرؤية الاجتماعية ، وكروبتكين لم يقلل من شأن هذه الصفات ، ولكنه حينما سقط القلم من يده وهو فى الثمانين من عمره كان قد أسبغ على ذلك اليقين وتلك الرؤية شرف العلم ، ووسع من نطاقهما حتى أصبحا صالحين ليكونا مجالا لفلسفة حياة » .

وبتأثير جهود كروبتكين أصبحت الفوضوية من النظريات السياسية التى لا يمكن تجاهلها حينما يتناول الدارسون المشكلات الاجتماعية والمذاهب السياسية، وبغض النظر عن آرائه السياسية ورسائله الكثيرة فى دعم المذهب الفوضوى وتوضيح اتجاهاته فان آراءه فى علم الاجتماع جديرة باهتمام المعنيين بمستقبل الانسانية وتوفير أسباب النهوض بها وتحسين أحوالها .

وقد ولد كروبتكين سنة ١٨٤٢ وقضى طفولته فى العمارة الضخمة التى تملكها أسرته فى موسكو وفى الضيعة الكبيرة فى ناحية كالوجا ، وكانت أسرته من الأسر العريقة الثرية القوية ، وكان أسلافه أمراء فى ناحية سمولنسك ، وهم يزعمون ان نسبهم يرجع الى أسرة روريك الملكية التى حكمت موسكو قبل عهد أسرة رومانوف ، وكان والده أحد القواد المتقاعدين ، ومن طراز رجال الجيش الذى كان مألوفاً فى عهد القيصر نيقولا الأول ، وربما

كان من الخير ان اسكندر كروبتكين لم يعر تربية أولاده الاهتمام الكافى ، فقد تركهم فى كفالة الفلاحين المستعبدين والمعلمين الخاصين ، ورأى بتركروبتكين منذ طفولته معاملة أيه القاسية لعبيد الأرض ، وما يعانونه من نزوات طغيانه ، وأدرك الرابطة الانسانية التى تربط الأغنياء بالفقراء وقال هو نفسه عن الفلاحين الروسين « أى كنوز

من طيبة النفس تنطوى عليها قلوبهم » ، وزوده أحد مدرسيه - وكان من الفرنسيين الذى عملوا فى جيش نابليون الكبير - بمجموعة من الكتب كانت غذاء صالحا لعقله المتفتح ونفسه المتطلعة الى المعرفة ، وقرأ أقايصيص جوجل وأشعار بوشكن ونيكرا سوف والفصول الصحفية التى كان يكتبها تشرنفسكى ، وحثه أستاذ آخر من أساتذته على معالجة الكتابة وهو بين الثانية عشرة من عمره .

وبوصفه أحد أولاد ضابط من كبار الضباط كان المنتظر ان يقضى حياته فى خدمة القيصر ، وقد استرعى مرة نظر القيصر نيقولا الأول فى حفل أقامه النبلاء فى موسكو تكريما للقيصر ، وأمر القيصر أن يلتحق الغلام بفرقة الوصفاء ، وهى المدرسة الحربية التى كانت مقصورة على أولاد الطبقة الارستقراطية العالية التى تختار منها أفراد الأسرة الحاكمة من يصحبهم ويعمل معهم ، وصار كروبتكين ألمع طلبة المدرسة ومن ثم أصبح قائدا لفرقة ، ومعنى ذلك ان يختار وصيفا للقيصر الجديد الاسكندر الثانى مدة سنة ، وكان معنى ذلك ان مستقبله صار مضمونا لان المنتظر ان يعين قائدا وهو فى مقتبل الشباب ويرقى بعد ذلك الى منصب حاكم لاجدى الولايات .

ولكنه حينما ترك الفرقة فى سنة ١٨٦٢ كانت أفكاره قد طرأت عليها تغيرات كثيرة تجعل من غير الممكن أن يقبل سير الحياة الذى رضى له والده، وقدره له أساتذته، وكان موقفه من البلاط القيصرى متناقضا، فهو من ناحية قد فتن بما فى حياة البلاط من جمال وروعة وأناقة وأبهة، وأرضى ما فى نفسه الشابة من حب الاستطلاع ما كان يشاهده من طرائف الشخصيات البارزة المعروفة وما يتكشف له من خفى أسرارهم ونواحي تهافتهم وضعفهم، وكانت النزعة التطهيرية الكامنة فى نفسه تجعله ينفر من الفساد المستتر وراء التآلق الأخاذ والمظهر الخادع، وقد أعجب بالقيصر الاسكندر الثانى حينما وافق على تحرير الفلاحين سنة ١٨٦١ وعده بطلا من أبطال الحرية، وقدر ميل القيصر الى النهوض بواجباته والشعور بتبعاته، ولكن القيصر خيب آماله فيه حينما أخذ يتجه اتجاه رجيا بعد تحرير الفلاحين، وآل به الأمر الى اصطناع الشدة المتناهية والقسوة البالغة فى القضاء على الثورة البولندية التى نشبت فى سنة ١٨٦٣.

والواقع أنه كانت هناك نزعتان قويتان فى نفسه تبعثانه على الاعراض عن السير فى الخدمة الحكومية، فقد فضجت فى نفسه غريزة الميل الى الحرية وكراهة الطغيان فى مختلف صوره، ومن ناحية أخرى كان حبه للبحث العلمى قد أخذ يسيطر على نفسه وكان من حق أفراد كتيبة الوصفاء أن يختاروا الفرقة التى يعملون بها، وكانت تعد لهم فيها الأمكنة المناسبة، وكان معظم الغلمان يختارون فرقة الحرس، ولكن كروبتكين كان يريد ثلاثة أشياء ويؤثرها على المستقبل الزاهر والمنصب العالى، وهى أن يبتعد عن جو بطرسبرج الضار الموبوء وأن يتابع دراساته العلمية وأن يقوم بدوره

فى حركة الاصلاح المأمولة بعد تحرير الفلاحين، ورأى أن المكان المناسب لذلك كان هو سيبيريا، وكانت النواحي الشرقية منها لم يتم كشفها وتتيح فرصا عدة لطلاب البحث العلمى، ومن أقواله فى هذا الصدد «بدا لى بعد التفكير أن فى سيبيريا مجالا متسعا للاصلاحات العظيمة التى أعادت أو القادمة، ولا بد أن العمال هناك قليلون ومن ثم سأجد مجالا للعمل يوافق ذوقى».

ولذلك طلب الانضمام الى الفرقة الجديدة فرقة القوازيق الراكبة فى جهة أمور، ولم تكن من الفرق التى ينظر اليها بعين التقدير والاعتبار، ولذا عجت السلطات لهذا الاختيار وأغضب الأسرة، ولكن اتفق أن حدث حريق فى كتيبة الوصفاء كاد يقضى عليها، واستطاع كروبتكين بذكائه وحضور خاطره أن يخمد النيران، واسترعى ذلك نظر الفرانديك ميشيل، فعمل على مساعدته فى تحقيق رغبته، ولما عرض الأمر على القيصر الاسكندر الثانى قال له «اذهب، ويمكن الانسان ان يكون نافعا فى أى مكان يحل به» وكانت هذه آخر مرة يرى فيها كروبتكين القيصر فقد اغتيل فى سنة ١٨٨١ لانحرافه عن سبيل الحرية، وعودته الى السير فى طريق الرجعية.

ورحب حاكم سيبيريا القائد كورساكوف بتقديم كروبتكين وقال له انه يحب أن يكون الى جانبه رجال أحرار الفكر، وعينه مساعدا للتائد كوكيل، وعهد اليه كوكيل بدراسة نظام العقوبة فى سيبيريا، وأقبل كروبتكين على هذا العمل بحماسة ونشاط ملحوظ، وأتاح له ذلك الفرصة لزيارة سجون سيبيريا وتعرف أحوالها، وكانت تطابق ما وصفه الكاتب الكبير دستوفسكى فى روايته المعروفة «المدفون حيا»،

ورأى ما كان يعانيه عمال المناجم والثائرون البولنديون ، وقد فتك مرض السل بالكثيرين منهم .

وأثارت في نفسه هذه المظاهر كراهة الحكم المطلق، ولكنه كان لا يزال يؤمل أن حركة الإصلاح قد تتقدم وتستطيع إزالة المساوئ ، وظل يتابع عمله في انجاز تقريره عن أحوال السجون وبيان مقترحاته لإصلاح الأحوال ، ولكنه سرعان ما أدرك أن بطرسبرج غير حافلة بالفساد الشائع في سبيرييا، ولكن في الوقت نفسه أعجب بنجاح الروح التعاونية في المستعمرات التي كان يقيم بها جماعات الدوكوبور - وهم طائفة دينية مسيحية روسية - وغيرهم من الفلاحين المنفيين ، وهو يقول في ذلك « بدأت أقدر الفرق بين العمل بموجب مبدأ الأمر والنظام والعمل بموجب التفاهم العام ... وبرغم أنني لم أصب ملاحظاتي في قالب الصراع الحزبي فأننى أستطيع أن أقول الآن أنني في سبيرييا فقدت إيماني بالنظام الحكومي الذي كنت أتطلبه قبل ذلك ، وصرت مستعدا لأن أصبح فوضويا » .

ولكن مرت سنوات عدة قبل أن تبرز النزعة الفوضوية الكامنة في نفسه بروزا واضحا ، وحينما زاد يأسه من عناية الدولة بحركة الإصلاح تحول إلى العلم ، ورحب بالفرصة التي أتاحت له القيام برحلات كشفية في الناحية الشرقية من سبيرييا، وكان يصحب في هذه الرحلات جنود القوزاق والصيادين المقيمين في تلك الأنحاء ، وقد وجد فيهم براءة النفس التي لم تفسدها عيوب المجتمع الغربي مما جعله يحسن الظن بالشعوب البدائية ويكبر صفاتهم ويقدر بساطتهم ونزاهة نفوسهم، وكان يسير بينهم مجردا من السلاح لثقتهم من ميلهم إلى السلم .

وطوى في هذه الرحلات قرابة خمسين ألفا من الأميال في نواحي الشرق الأقصى ، وكشف في هذه الرحلات هضبات ومرتفعات لم تصل إليها أقدام المتحضرين قبله ، واستطاع بذلك أن يأتي بنظريات عن تكوين سلاسل الجبال في شرق آسيا أحدثت ثورة في التفكير الجغرافي ، وقدم للباحثين معلومات قيمة عن العصر الجليدي وعن الجفاف الذي حدث في شرق آسيا، وأدى إلى اتجاه سكان البطائح إلى الناحية الغربية ، ويعد كروبتكين بين الجغرافيين من العلماء الأفاضل الذين قدموا الكثير من المعلومات عن تكوين الأرض وتاريخها .

وخلال هذه الرحلات كان يجد متسعا من الوقت للتفكير في أحوال المجتمع ، وقد حملته هذا التفكير المتوالى على أن يفكر في التضحية بحيوته العلمية لما كان يراه غرضا أسما ، وكانت هناك مؤثرات كثيرة تجعله ينزع هذا المنزع منذ قدومه سبيرييا ، فقد خالط الكثيرين من المنفيين، وتأثر بوجه خاص بشخصية الشاعر ميكالوف الذي أرسل إلى سبيرييا سنة ١٨٦١ ، ومات بها سنة ١٨٦٥ بمرض السل ، وقد أطلع ميكالوف على آراء المفكرين الفوضويين وشجعه على قراءة برودون .

وفي سنة ١٨٦٦ وقعت حادثة أثارت نقمته على الاوتقراطية التي يخدمها إلى أقصى حد ، فقد نشبت ثورة بين المنفيين من البولنديين الذين كانوا ينون طريقا حول بحيرة بيكال ، فجردوا حراسهم من السلاح واتجهوا إلى الجنوب وهم يظنون أن في استطاعتهم أن يعبروا جبال منغوليا ويصلوا إلى سواحل الصين ، ولكن القوزاق اعترضوا طريقهم وقتلوا منهم خمسة، فاستقال كروبتكين من الجيش القيصرى ، وعاد إلى بطرسبرج، والتحق كروبتكين

وانما معنى ذلك أن العمل على الإصلاح الاجتماعى أصبح منذ تلك اللحظة واجبه الأول ، وأن على العلم أن يكون خادما للأغراض الثورية .

ولهم يعرف فى بادئ الأمر كيف يفصل في الموضوع ويرسم لنفسه طريق السير ، ففكر فى أول الأمر فى الاتجاه الى الشعب ، وكان كثير من الشبان الروسين فى السبعينات قد آثروا هذا الاتجاه ، وكانوا يرمون بذلك الى تعليم الشعب وتوعيته لظنهم أن هذه هى الخطوة الأولى فى سبيل التقدم ، ولكنه أدرك أن إيجاد مدارس لهذا التعليم سيثير اشتباه الحكومة ، وهى لا تتردد فى اغلاق تلك المدارس والقضاء على هذه الحركة ، وبرغم ذلك ذهب الى ضيعة أسرته فى تامبوف وهو يعتقد أن أى جهد يبذل فى رفع مستوى الفلاحين العقلى مهما قل سيكون له أثره المحمود ، وقد اقتنع بعد ذلك أن زمن التقارب بين الفلاحين الروسين وجماعة المثقفين لم يحن بعد ، ولذلك عقد العزم على زيارة غرب أوروبا حيث يستطيع فى جو الحرية الفكرية السائد أن ينظم أفكاره ، ويقرر الطريق الذى يسلكه .

وكان من الطبيعى أن يذهب فى أول الأمر الى سويسرة ، فقد كانت ملتقى الأحرار الروسين وأقام أولا فى مدينة زيورخ ، وكان بها كثيرون من الروسين رجالا ونساء يدرسون فى جامعتها ، وأخذ كروبتكين فى دراسة النزعات الثورية والاتجاهات الاشتراكية السائدة ، ولقى أحد أتباع الزعيم الفوضوى باكونين ، وجمع ما استطاع جمعه من الكتب عن الاشتراكية ، وكان يطلع كذلك على ما تنشره الجرائد من فصول فى الموضوعات السياسية ، قال عن نفسه فى تلك

بالجامعة طالبا ، ورفض والده أن يرسل اليه نقودا ، فأخذ يقوم ببعض الأعمال الكتابية للجمعية الجغرافية الروسية ، وكان يحصل منها على ما يسد رمقه ويمكنه من أن يعيش على النمط الاسبرطى الذى ألفه فى رحلاته الكشفية ، وقد قال أحد أصدقائه الذين عرفوه فى تلك الفترة انه كان يقيم فى حجرة لا تكاد تتسع لأربعة من الناس .

واستأثرت الدراسات الأكاديمية والبحوث الجغرافية بوقته لسنوات عدة ، ولكن ضميره كان يؤنبه حينما يذكر حالة الفقراء وما يعانون من الضيق والبؤس ، وتلقى فى سنة ١٨٧١ برقية وهو فى فنلنده يختبر الرواسب الثلجية تخبره أنه وقع عليه الاختيار ليكون سكرتيرا للجمعية الجغرافية الروسية ، ولو كانت هذه الفرصة سنحت له قبل بضعة أشهر لاغتتمها وسر بها ، ولكن عرض هذا المنصب عليه فى ذلك الوقت جعله يتردد طويلا ، فالعلم من غير شك نافع لبنى الانسان ، ولكنه نوع من الترف حينما تكون هناك واجبات انسانية عاجلة على الانسان أن لا يتردد فى القيام بها ، وهو يقول عن نفسه فى هذا الوقت « بأى حق أسمح لنفسى بالاستمتاع بالمسرات الأسمى وليس حولى سوى الشقاء والجهد من أجل الحصول على لقمة الخبز العفنة ، وكل ما أنفقه ليتمكن من أن أعيش فى هذا العالم من العواطف السامية لابد أنه مأخوذ من أفواه هؤلاء الذين يزرعون القمح وليس عندهم من الخبز ما يكفى لأطفالهم » .

وجعله هذا الشعور يعتقد أن واجبه — على الأقل فى تلك الظروف — ليس فى مجال البحث العلمى ، ولكن لم يكن هذا منه تخليا عن العلم ،

الفترة « كنت كلما أكثر من القراءة ظهر لى عالم جديد كنت أجهله ويجهله جهلا تاما العلماء الذين وضعوا نظريات علم الاجتماع ، وهذا العالم لا أستطيع معرفته الا بالمعيشة مع جماعات العمال ومخالطة العمال فى الحياة اليومية » .

وترك زيورخ ، وذهب الى جنيف ، وخالط بها جماعة الماركسيين وبعض أنصار باكونين الزعيم الفوضوى ، وقد أغراه النقاش مع أحد اتباع باكونين بالذهاب الى منطقة جبال الجورا القائمة على الحدود الغربية بين فرنسا وسويسرة ، وتعرف هناك بالكثيرين من صانعى الساعات ، وبادلهم الحديث فى حوائثهم ومصانعهم ، وحضر اجتماعاتهم القروية ، وأقنعه ما رآه بصواب الآراء الفوضوية فالاستقلال الفكرى السائد بين هؤلاء الصناع فى منطقة الجورا وتحريم المساواة البريئة من سلطان الدولة وضغطها جعلاه شديدا الايمان بالفوضوية ، وأصبحت الفوضوية المذهب السياسى والاجتماعى الذى لزمه طوال حياته ولم يتحول عنه .

وعاد كروبتكين الى روسيا ، وانضم الى جماعة شيكوفسكى ، وأعضاء هذه الجمعية لم يكونوا اربابيين ، ولم يفكروا فى استعمال العنف للقضاء على الحكومة القيصرية ، وانما كان دأبهم الدعاية وأن يكتبوا الرسائل والكتيبات ويعملوا على نشرها واذاعتها ، وأن يساعدوا على التعريف بالآداب الغربية ويقوموا بمهمة تعليم الشعب ، وكان أكثرهم ميالين الى الاشتراكية الديمقراطية ، وكان كروبتكين الفوضوى الوحيد بينهم ، ولم يكن لأفكاره تأثير يذكر فى هذه الجماعة ، وبرغم ذلك فان

كروبتكين كتب فى تلك الأيام أولى رسالاته فى تأييد المذهب الفوضوى ، وهى الرسالة التى عنوانها « هل نشغل أنفسنا ببحث المثل العليا لمجتمع فى المستقبل » وأكد تقرير الشرطة السرية أن الرسالة طبعت وان كان لم يوجد منها أى نسخة مطبوعة وانما أحضرت نسخة مخطوطة منها فى محاكمة المائة والثلاثة والتسعين التى كانت آخر الحركات الشعبية المسالمة فى سنة ١٨٧٨ .

وتبين هذه الرسالة مبادئ الفوضوية التى توسع كروبتكين فى شرحها بعد ذلك ، وقد ظهر فيها تأثره بأفكار برودن وباكونين ، وقد أشار فيها الى التعاون بين المستهلكين والمنتجين ، ودافع عن امتلاك العمال للأرض والمصانع ، ولكن لم تظهر فيها فكرة التوزيع الشيوعى التى اقترنت فيما بعد باسم كروبتكين .

وكان كروبتكين يعارض فكرة الثورة عن طريق تدبير المؤامرات ، وعنده أن عمل الثائرين يقتصر على ربط الجهود التى يبذلها الشعب المتذمر وارشادها الى الطريق السوى ، وهو يرفض فكرة الدولة ، ويرى أن العمل اليدوى يجب أن يعد واجبا عاما على الجميع ، وعنده أن التربية الحققة يجب أن يقترن فيها التدريب العقلى بالتدريب المهنى .

وقضى سنتين وهو يشترك فى نشاط جماعة شيكوفسكى متخذة بحوثه الجغرافية ستارا يخفى وراءه نشاطه السياسى ، وفى سنة ١٨٧٤ ألقى القبض عليه ، وسجن فى سجن بطرس وبولس ، وبعد سنتين وهن جسمه واعتلت صحته ، ونقل الى بناء السجن فى مستشفى بطرسبرج الحزبى ، وقد يسر له ذلك الهرب ، وفى اغسطس سنة ١٨٧٦ وصل الى انجلترا ، وفى

وفى آخر سنة ١٨٧٨ منعت الحكومة السويسرية إصدار الجريدة ، واعتقلت المشرف على إصدارها فأوجد كروبتكين جريدة « الثائر » التى أصبحت أكثر الجرائد الفوضوية تأثيرا منذ اختفاء جريدة « الشعب » التى كان يصدرها برودن فى سنة ١٨٥٠ ، وكان كروبتكين يكتب أكثر هذه الجريدة، وعلاوة على ذلك كان يلقي محاضرات فى المدن الصغيرة الواقعة حول بحيرة ليمان ، وصار يعتقد أن الوقت قد حان لتنتقل الفوضوية من المنطق النظرية الى المجال العملى ، وقد حاول فى الفصول التى كان ينشرها فى جريدة الثائر تناول المسائل الاقتصادية والتاريخية ، وكان يكتب بأسلوب صحفى واضح ولكن دون ترخص أو إسفاف ، وكان ذلك مدعاة لذيوع الجريدة لا فى سويسرة وحدها ولكن فى جنوب فرنسا كذلك .

وظل كروبتكين يوالى نشرها حتى نفى من سويسرة من جراء ضغط السفير الروسى ، فذهب الى مدينة ثونون الفرنسية الواقعة على شاطئ بحيرة ليمان الجنوبى ، وكانت الفصول التى كتبها فى جريدة الثائر تتناول موضوعات الساعة ، وكانت تنم على شدة التفاؤل فقد كان كروبتكين يرى أن كل اضطراب دليل على قرب انهيار الدول القومية الكبيرة ، وكان يعد هذه الدول أعداء السلام والعدالة الاجتماعية ، وظل سنوات عدة ينتظر وقوع الثورة الشاملة فى أوروبا ، وكان يشاركه فى هذا الأمل كثيرون من الفوضويين والماركسيين .

وكتب فصولا شتى فى نقد المجتمع المعاصر له والنظم السائدة من وجهة النظر الفوضوية ، وقد جمع بعض هذه الفصول فى كتابه « غزو الخبز » ، ومحاولة التوفيق بين النظرية والتجربة

أوائل السنة التالية سافر الى سويسرة وأعاد علاقاته بأعضاء اتحاد الجورا ، وأصبح موضع نقد الفوضويين لما قام به من الأعمال فى روسيا ، وأخذ يكتب فى النشرة التى كان يصدرها اتحاد عمال الجورا ، وعاد الى إنجلترا وظل حينما من الزمن يتردد على مكتبة المتحف البريطانى للدراسة ، وأخذ من ذلك الحين يعنى ببيان الجانب الأخلاقى فى الفوضوية ، ومن أقواله فى هذا الصدد « وبالتدريج بدأ يتضح لى أن الفوضوية تمثل أكثر من أسلوب للعمل ، وأكثر من مجرد تصور للمجتمع الحر ، انها جزء من فلسفة طبيعية واجتماعية يجب انماؤها بطريقة مختلفة عن الأساليب الميتافيزيقية أو الديالكتيكية المستعملة فى العلوم التى تتناول الانسان ، ورأيت أنها يجب أن تتناول بنفس الأساليب المتبعة فى العلوم الطبيعية وعلى الأساس الاستقرائى المتين المطبق على النظم الانسانية » .

ولكنه لم يسترسل فى استيفاء هذا التفكير لأنه شعر بضرورة القيام ببعض الجهود العملية ، وترك مطالعته فى المتحف البريطانى ليشارك فى ايجاد جماعة تكونت منها نواة الحزب الفوضوى فى باريس ، وقد اضطر للهرب فى سويسرة وظل بها حتى سنة ١٨٨٠ .

وخاب أمله حينما وجد أن صانعى الساعات فى اقليم الجورا الذى أثر فى نفسه تضامنهم فى سنة ١٨٧٢ قد فتر نشاطهم وخمدت حماستهم ، ولكنه وجد فى جنيف أن الحركة الفوضوية ناشطة ، وكان بها كثيرون من المنفيين الروسين والفرنسيين ، وقد اشترك كروبتكين مع أحدهم فى تحرير جريدة أسموها « الطليعة » وكانت تهرب بعض أعدادها الى فرنسا لانماء المذهب الفوضوى بها .

يحول بين هذه الاتفاقات الاختيارية وبين تعميمها حتى تشمل أكثر وظائف المجتمع الانساني المعقدة .

ويعلل كروبتكين المظالم الاجتماعية والأزمات الاقتصادية بنقص القدرة على الاستهلاك لا بزيادة الانتاج ، وبتوجيه العمل الى نواح غير منتجة ، فاذا بطل انتاج وسائل الترف واتجه النشاط الانساني الى الأعمال الاجتماعية النافعة بدلا من تبديد الجهد في البيروقراطية والأعمال الحرة فانه يمكن توفير الانتاج الذى يسد حاجة الجميع ، واذا عمل الناس جميعا بأيديهم وسواعدهم كما يعملون بأذهانهم لمدة خمس ساعات فى كل يوم وفى سن العشرين أو الخامسة والعشرين الى الخامسة بعد الأربعين أو الخمسين فانه سيكون فى ذلك راحة للجميع ، وقد عرف كروبتكين بوصفه عالما متعة الخلق الفكرى ، وان أوقات الفراغ لازمة للانسان لزوم الخبز، ومن أقواله « الانسان ليس كائنا كل همه فى الحياة الأكل والشرب واعداد المسكن الواقى له ، ومتى توفرت له أسباب الحياة المادية فان حاجات أخرى يمكن أن نضعها بوجه عام انها لها طبيعة الفن تفرض نفسها عليه ، وهذه الحاجات كثيرة التنوع ، وهى تختلف باختلاف الأفراد ، وكلما ارتفع مستوى حضارة المجتمع ازداد تقدم الفردية وكثر تنوع هذه الحاجات » .

ومما لاشك فيه أن معظم الناس فى المجتمع الرأسمالى يجدون العمل مملا ويسرهم أن يغتسوا فرصة التهرب منه ، ولكن ليس معنى هذا فى رأى كروبتكين أن الانسان مطبوع على حب البطالة وكرهه العمل ، والأمر على نقيض ذلك ، فان الانسان يؤثر أن يجد ما يشغل به وقته ويوجه اليه

ظاهرة فى معظم الفصول التى كتبها فى جريدة « الثائر » ، وهو لا ينظر الى الثورة باعتبارها انقلابا دمويا ولهيا ساحقا ، وانما ينظر اليها باعتبارها حادثة يعرف فيها العمال نتائج أعمالهم فلا تنتهى الثورة باستيلاء فريق على السلطة يقيم العقبات فى سبيل الحرية وتقدم المجتمع الطبيعى ، وعنده أن الثورات لا تقوم بالألفاظ وحدها وانما تقوم على معرفة العمل الواجب القيام به وعقد العزيمة على تحقيقه ، ولا بد أن تضمن الثورة تقدما ملحوظا نحو المساواة الاجتماعية ، وأن يعود امتلاك كل شىء الى المجتمع نفسه ، وأن يكون لكل انسان نصيبه الكامل من الاستهلاك ، وأن يستمر انتاج ما هو ضرورى ونافع .

وفى كتاب « غزو الخبز » يوضح كروبتكين أن ميراث الانسانية للجميع وليس من الممكن أن نقدر مدى اسهام كل فرد فى توفيره ، ولما كان الحال كذلك فان هذا الميراث يجب أن يستمتع به الجميع ويقول كروبتكين « الأشياء جميعها لكل الناس لأن الناس جميعا فى حاجة اليها ، وكل الناس قد عملت على حسب طاقة كل فرد فى ايجادها ومن الصعب تقويم الجزء الذى قام به كل فرد فى هذا العمل » .

ويتبع ذلك الغاء عدم المساواة وإبطال الملكية الخاصة ، ولكن كروبتكين لا يرضيه أن يقوم فى مكان الرأس مالية الفردية حكومة تملك وسائل الانتاج كما يرى الاشتراكيون أنصار السلطة وانما يريد نظاما قائما على التعاون الحر الخالى من أى لون من ألوان الاكراه ، وهو يضرب مثلا لذلك اتحاد البريد واتفاقات السكك الحديدية بين مختلف الأمم ، وهو لا يرى أن هناك أى مانع منطقى

نشاطه ، على أن يكون ذلك فى ظروف سمحة وأحوال مواتية ، وتوزيع العمل والأحوال السيئة فى المصانع هما أساس كراهة العمل التى تقوم بنفوس العمال ، فإذا وجد البيئة الصحية التى تشرح الصدر وتبهج النفس وأحسن توزيع العمل وشعر المنتج بفائدة عمله وقيمته وحسن أثره فإن العمل يصبح محبوبا ومرغوبا فيه ، ويضاف الى ذلك شعور العامل بأنه انسان حر يعمل للمصلحة العامة مما يزوده بدافع أخلاقى له قيمته، ويرى كروبتكين أن خير دافع الى العمل ليس هو الشعور بالحاجة وانما هو الشعور بالرغبة فى أن يقوم الانسان بأداء شئ ، ومعنى ذلك أن كروبتكين شديد الاعتماد على شعور الانسان بتبعته الاجتماعية ، وهو يرى أنه متى زال الضغط الذى توجده الحكومات فإن المنتظر أن الناس تعمل بدافع اجتماعى، لان هذا يلائم طبيعة الانسان ، ولم يغب عن فكر كروبتكين أن بعض الأفراد قد يقاومون جاذبية العمل ، وهو يرى أن من حق المجتمع فى هذه الحالة أن يوجه اليهم ضغطا أدبيا ، وهو يقول مخاطبا الرجل الذى لا يعمل شيئا « اذا كنت عاجزا عجزا مطلقا عن انتاج أى شئ نافع أو اذا كنت ترفض أن تعمل فلتعش فى عزلة ، أو لتكن مثل المرضى ، وإذا كنا قد توفر عندنا ما يكفى من ضرورات الحياة فأننا سنسر باعطائك ما يلزمك ، فأنك انسان ، ومن حقا أن تعيش، ولكن مادمت تريد أن تعيش فى ظروف خاصة وتترك الصفوف فإن الأكثر احتمالا أن تشقى من أجل ذلك فى علاقاتك اليومية مع المواطنين الآخرين ، وسينظر اليك كما لو كنت شبعا من المجتمع البورجوازى الا اذا كان أصدقاؤك يكشفون فيك موهبة فيعملون على اعفائك

من كل الواجبات الأدبية بأن يقوموا هم أنفسهم بالعمل اللازم من أجلك » .

وقضى كروبتكين فى ثونون أسابيع قليلة عاد بعدها الى انجلترا ، وفكر فى الإقامة بها ، ولكنه وجد الحركة الاشتراكية بها قليلة النشاط ، فبعد أن قضى بها عاما لم يرقه الجو الفكرى، وفى أكتوبر سنة ١٨٨٢ عاد الى ثونون ليكون على مقربة من صحابته القدماء فى جنيف .

ولم تكن الظروف فى فرنسا مواتية ، ففى خلال الأشهر التى قضاها فى انجلترا شملت فرنسا موجة من القلق والاضطراب، وحدثت بعض حوادث الشعب والهيّاج وألقيت متفجرات من الديناميت، ورأت السلطات الفرنسية أن هذه الحوادث المرعبة قد اقترنت بتقدم الفوضوية فى جنوب فرنسا ، وكان كروبتكين قد انقطع اتصاله بحركة الفوضوية فى فرنسا فى أثناء إقامته بانجلترا ، ولكن صلته بجريدة الثائر وهى أهم الجرائد الداعية الى التحرير وشهرته الدولية باعتباره من المفكرين الثوريين وعودته الى فرنسا فى تلك الظروف العصيبة كان ذلك كله من الأسباب التى دعت الشرطة الى الاعتقاد بأن تركه حرا من المسائل الخطيرة، فحينما شرعت الحكومة الفرنسية فى آخر سنة ١٨٨٢ فى اعتقال الفوضويين كان كروبتكين من الذين اعتقلوا، وفى ٣ يناير سنة ١٨٨٣ قدم للمحاكمة مع ثلاثة وخمسين من المتهمين باتباع المذهب الفوضوى ، وحاول المتهمون اغتنام فرصة المحاكمة لشرح المبادئ الفوضوية والدفاع عنها ، وحملوا على الحكومة والرأسمالية وقالوا انهم يطلبون الخبز للجميع وتعميم المساواة ، ودافع كروبتكين عن نفسه موضحا لماذا مال الى المذهب الفوضوى ، وناشد القضاة ألا يعملوا على زيادة الكراهة الطبقيّة ،

وأن ينحازوا الى جانب الذين يطالبون باقامة مجتمع عادل لا يشعر فيه الناس بذل الحاجة وتبطل فيه دواعي الصراع والمنازعات ، ولكن بلاغته لم يكن لها تأثير على القضاة ، وصدر الحكم بادانته مع ثلاثة من زعماء الفوضوية ، وحبس كل واحد منهم خمسة أعوام ، وأرسلوا الى سجن كليرفو وعوملوا معاملة المسجونين السياسيين ، وقد شغل كروبتكين وقته بتعليم زملائه من المسجونين اللغات وعلم الجغرافيا والعلوم الطبيعية والهندسة ، وكتب فصولا عن روسيا فى مجلة القرن التاسع عشر كما كتب فصولا عن الجغرافيا فى المجلة الاشتراكية الفرنسية ، وأسهم فى تحرير دائرة المعارف البريطانية وشارك فى كتابة كتاب ضخمة عن الجغرافيا العامة .

وهذه الفصول التى كان يكتبها وهو سجين تبين مدى الاعتراف بمكانته العلمية ، وهى لا تدل على تقدير العلماء والمثقفين لكروبتكين فحسب بل كانت تبين كذلك أن محاكمته والزج به فى السجن من الأعمال غير اللائقة ، ولذلك عملت طائفة من كبار المفكرين فى انجلترا وفرنسا على اطلاق سراحه ، ولم يجد ذلك ، وظل كروبتكين فى السجن وعانى من مرض الملاريا المنتشر فى جهة كليرفو ، وقال رئيس الوزراء الفرنسى ان هناك أسبابا دبلوماسية تحول دون الافراج عنه ، وكانت هذه الأسباب هى ضغط الحكومة الروسية ، ولكن غضب الشعب اضطر رئيس الوزراء فى النهاية الى الافراج عن كروبتكين وغيره من الفوضويين المعتقلين ، وقضى كروبتكين فى السجن ثلاث سنوات ولما أطلق سراحه فى ١٥ يناير سنة ١٨٨٦ ذهب فى شهر مارس من السنة نفسها الى انجلترا ، وأقام بها أكثر من ثلاثين عاما ، وفى انجلترا توقف نشاطه

الكشفى ونشاطه الثورى الذى استمر مدة ربع قرن منذ خروجه من روسيا ، وقد ساعد فى ايجاد مجلة الحرية فى انجلترا وجماعة الحرية ، وكانت هى الجماعة الفوضوية الوحيدة فى انجلترا ، وكان من الحين الى الحين يقوم برحلات فى بعض المدن البريطانية لالقاء محاضرات ، ورحل مرتين الى أمريكا الشمالية ، واشترك فى انشاء عدد من المجلات التى كان يحررها المنفيون الروسون ، وكان يقوم بهذه الأعمال فى أوقات غير متصلة ، ومنذ تركه لتحرير مجلة الثائر لم يقيم بدور الزعيم الفوضوى ومال الى الحياة الفكرية التأملية ، وكان يجمع بين دراسته للفوضوية من الناحية الاجتماعية وعنايته القديمة بالبحوث العلمية ، وعاش طويلا فى ناحية قاصية فى الريف معنيا بزراعة حدائقه ، وكان يستقبل فى كل أسبوع طائفة من الزائرين بعضهم من زملائه الجغرافيين والفوضويين وبعضهم من الانجليز المثقفين والكتاب البارزين مثل برناردشو وفرانك هاريس وفورد مادوكس فورد وغيرهم ، وكان الفوضويون يعدونه العالم الحجة فى المذهب الفوضوى يستشيرونه فى مشكلاتهم الفكرية وقضاياهم المذهبية ، ويرحب بقدمه حين يظهر فى اجتماع عام أو حينما يزور أحد الأندية الثورية ، وكان البريطانيون المثقفون يرون فيه رمزا لمكافحة الحكم الاوتقراطى الروسى ، وكانت الفصول التى يكتبها فى جريدة التايمز أو فى المجلات العلمية موضع التقدير والاحترام ، وعد كتابه عن «التعاون المتبادل من الكتب الهامة والمراجع الماثورة .

وبمرور الزمن طرأت تعديل على موقف كروبتكين الثورى ، وأصبح شيئا فشيئا يقدر جانب التطور فى التغير الاجتماعى ويرده الى التقدم السلمى فى المجتمع لا الى الانتفاض الثورى ، وقل ايمانه

بطرائق العنف والشدة ، وفى سنة ١٨٩١ ذهب فى إحدى خطبه الى أن الفوضوية قد تجيء نتيجة لنضج الرأى العام وبأقل ما يمكن من الاضطراب ، وكانت تثير همه وترعجه أخبار الاغتيالات والجرائم التى يقدم عليها الفوضويون ، وكان يقول ان الدوافع التى تحدهم على الاجرام دوافع نبيلة ومفهومة ولكنه لا يقر الأساليب التى يتبعونها .

وكان هناك أسباب كثيرة لهذه التغيرات فى مسلك كروبتكين ووجهة نظره ، فمن ناحية أرغمه ضعف صحته على طلب المعيشة الهادئة ، وكشف ذلك عن النواحي الخيرة فى نفسه ، وقد اتجه الى التطور لأن طبيعته الهادئة الرقيقة كانت تؤثره ولأن بحوثه العلمية من ناحية أخرى ساقته اليه ، وقد وجد أن جهوده المحمومة السابقة لم تأت بالتأثير السريع المطلوبة ، وقدر العقبات القائمة فى طريق الحركات الثورية وشك فى امكان النجاح السريع الذى كان يؤمله مع اخوانه الفوضويين ، وقد تأثر فى ذلك بأفكار زعماء الحركة الاشتراكية فى انجلترا مثل وليام موريس وغيره من الفايين وبعض موجدى حزب العمال المستقل مثل كير هاردى .

وليس معنى ذلك أن كروبتكين تخلى عن مثله العليا القديمة فقد ظل طوال حياته مقتنعا بوجود عيوب فى النظام الرأسمالى وسيطرة الدولة ومؤمنا بضرورة خلق المجتمع الحريديم المجتمع الخاضع لسلطان الدولة ، وبرغم توفر العلاقات الودية بينه وبين الاشتراكيين الانجليز فإنه لم يغير أسس مذهبه ، ولكن فوضويته كانت تختلف عن الفوضوية التى سادت فى أوروبا اللاتينية وكانت باعثا على وقوع الكثير من حوادث العنف .

وكان آخر المؤلفات التى أسهم بها كروبتكين فى بيان نظريته فى الفوضوية هى كتاب « التعاون المتبادل » الذى ظهر سنة ١٩٠٢ ، وفى سنة ١٩٠٣ أخرج رسالته عن « الدولة » أما الكتب التى ظهرت بعد ذلك مثل كتابه عن الأدب الروسى وكتابه عن الثورة الفرنسية وكتابه عن الأخلاق الذى طبع بعد وفاته فلم تكن خاصة بالمذهب الفوضوى وانما كانت متشعبة بروح الحرية التى عرف بها كروبتكين .

وكتاب « التعاون المتبادل » كان محاولة منه لاثبات أن البشر اذا اتبعوا العقل فى أعمالهم وتصرفوا بحكمة فإنه يمكن توفير الكثير من الجهود الموجهة الى أغراض غير نافعة بل لعلها ضارة ومعطلة للتقدم ، وفى هذه الحالة يتاح للبشر من أوقات الفراغ ما يمكنهم من السمو بالجانب الروحى فى نفوسهم .

وقد أكدت الدارونية جانب المنافسة والتناحر على الوجود ، وعدته من العوامل الغالبة المسيطرة فى عملية الانتخاب الطبيعى ، وان الانتخاب الطبيعى يحتفظ بالتنوعات الملائمة ويقضى على التنوعات غير الملائمة ، وقد اعترف دارون فى أواخر أيامه بأننا لا يجب أن نغفل التعاون فى حدود الأجناس باعتباره من عوامل التطور ، ولكن فكرة التناحر على البقاء ظلت مع ذلك العامل الأقوى فى تصوره لحركة التطور ، وأكدها الدارونيون الجدد مثل توماس هكسلى الذى ذهب الى أن عالم الحيوان يشبه مشهدا من مشاهد الصراع ، وأن حياة الانسان البدائي حرب حرة مستمرة ، وهذا الصراع فى رأى هكسلى ليس حالة مرغوبا فيها من أجل التقدم وانما هو ضرورة محتومة لا محيد عنها .

والنظرة السطحية لهذا رأى قد نرى فيه اتفاقاً مع بعض نواحي المذهب الفوضوى التى تقر فكرة الصراع باعتبارها لازمة لاييجاد المجتمع الحر ، ولكن الفوضويين يرون أن المعركة لازمة لازالة المنافسة الموجودة فى المجتمع الراهن ، واذا وجدت المنافسة فى المستقبل فانها ستتحوّل الى حافز اجتماعى نافع ، أما استمرار الصراع بالطريقة التى يصفها الداروينيون الجدد فانه يقضى على المجتمع التعاونى ، ولذلك صار من اللازم للمفكرين الأحرار أن يعدوا ردا حاسما على مذهب اليه هكسلى ، وقد تولى القيام بهذا العمل كروبتكين وكان اهتمامه بمظاهر التعاون فى التطور يرجع الى السنوات التى قضاها فى سيبيريا وقام فيها برحلاتة الكشفية ، وكان يلاحظ الحياة الحيوانية فى الأرجاء التى ارتادها ووجد أن الدلائل على وجود التعاون أكثر من الدلائل على وجود الصراع بين أفراد الجنس الواحد ، وأخذ به المذهب الفوضوى زاد اهتمامه بدراسة الحيوان من الناحية الاجتماعية ، وفى ابريل سنة ١٨٨٢ كتب فصلا فى جريدة « الثائر » تناول فيه مذهب دارون ، وظهر فى هذا الفصل اتجاه تفكيره الى نظرية التعاون المتبادل ، وذكر فى هذا الفصل أن التعاون والعمل المشترك من أسباب تقوية النوع ومنحه القدرة على المحافظة على وجوده ضد قوى الطبيعة الأخرى المعادية له ، وفى أثناء وجوده بعد ذلك فى سجن كليرفو تأثر بالمحاضرة التى ألقاها فى موسكو العالم كسلر وأشار فيها الى أهمية التعاون بوصفه عاملا من عوامل التطور ، ولكن بحث هكسلى الذى كان عنوانه « معركة البقاء وعلاقتها بالانسان » وظهر فى سنة ١٨٨٨ هو الذى أغرى كروبتكين بمحاولة الرد عليه ، وبدأ فى سنة

١٨٩٠ ينشر فى مجلة القرن التاسع عشر سلسلة من الفصول هى التى تكون منها كتاب « التعاون المتبادل »

وقد استهل الكتاب ببيان انه « فى عالم الحيوان - من الحشرات الى أرقى الحيوانات الثديية فان الأنواع التى تعيش فى عزلة أو فى فصائل قليلة العدد نسبيا وأفرادها محدودون ، وهى فى الأغلب من الأنواع الآخذة فى التناقص او انها تعيش على النمط الذى تعيش عليه بسبب الأحوال المصطنعة التى أوجدها تحطيم الانسان لميزان الطبيعة » والواقع أن التعاون المتبادل يبدو انه القاعدة بين الاجناس الناجحة كما أثبت كروبتكين بسلسلة من الملاحظات بعضها قام بها بنفسه وبعضها استمدتها من علماء آخرين ، وهو يرى أن هذا التعاون هو أهم الحقائق فى التطور ، وهو يقول فى ذلك « الحياة فى المجتمعات تمكن أضعف الحيوانات وأضعف الطيور وأضعف الحيوانات الثديية من المقاومة أو حماية نفسها من أشد الطيور ضراوة ومن الوحوش المعتدية ، وهو يسمح لها بطول البقاء ويمكنها من تعهد صغارها بأقل ما يمكن من الجهد وأن تحافظ على أفرادها رغم قلة عدد المواليد ، وهو يمكن الحيوانات التى تعيش جماعات من الهجرة فى طلب المساكن الجديدة ، ولذلك برغم تسليمنا بأن القوة والسرعة وحماية اللون والمكر والقدرة على احتمال الجوع والبرد التى ذكرها دارون ووالس من الصفات التى تجعل الفرد أو النوع أصلح للبقاء فى ظروف معينة فاننا نرى أن فى مختلف الظروف الروح الجماعية هى أعظم مزية فى صراع الحياة ، والاجناس التى تتخلى عنها برغبتها يحيق بها الهلاك فى حين ان الحيوانات التى تعرف كيف تضم

جموعها وتلم شغتها تملك أعظم فرصة للبقاء وللتطور ، ولو انها قد تكون أقل من غيرها فى مستوى الملكات التى عددها دارون ووالس غير الموهبة العقلية »

وعند كروبتكين ان الموهبة العقلية موهبة اجتماعية فوق كل شىء ، لأنها تعذيبها اللغة والمحاكاة والتجارب المتجمعة ، وعلاوة على ذلك فان المعيشة فى المجتمع تنمى ذلك الشعور الجماعى بالعدالة حتى يصبح عادة ، وهذا الشعور هو جوهر الحياة الاجتماعية

ومعركة تنازع البقاء لها أهميتها ، ولكنها معركة ضد الظروف المعادية ، وليست بين أفراد النوع الواحد ، وحينما توجد بين أفراد النوع الواحد فانها تكون ضارة لأنها تبدد ما كسبه النوع عن طريق الاجتماع ، ويذكر كروبتكين ان الانتخاب الطبيعى بدلا من ان ينجح عن طريق المنافسة والصراع فانه يعمل على تجنبهما

ويطبق كروبتكين هذه الاعتبارات على حياة الانسان ، ويناقض كروبتكين رأى هكسلى فى تصويره الانسان الأول مشغولا بالكفاح المستمر من أجل البقاء بملاحظاته الواقعية عن المجتمعات البدائية التى عاشت الناس فيها قبائل وعشائر تقوم فيها العادات والمحرمات مقام القانون وتضمن وجود التعاون المتبادل ، ويرى كروبتكين أن الانسان كان دائما من الأنواع الاجتماعية ، وقد بلغ التعاون أسمى مراحل فى حياة المدن الغنية فى العصور الوسطى ، ويشير الى ان ظهور القوانين والنظم القاهرة مثل وجود الدولة لم يمح الرغبة فى التعاون التى لاتزال اهم عامل فى المعاملات بين النساء والرجال باعتبارهم أفرادا ، والدافع الى الاجتماع هو أساس الأدب الاجتماعية جميعها واذا لم يكن له تأثيره فى أعمالنا

اليومية وعلاقاتنا بزملائنا فان أكثر الدول نظاما نعجز عن مقاومة تفكك روابط المجتمع وانحلاله •

واذا استئينا كتابه « مذكرات ثورى » فان كتاب التعاون المتبادل أشد كتب كروبتكين تأثيرا ، وبرغم ما فى الكتاب من تفاؤل فانه جم المعلومات حافل بالحجج والبيانات التى تؤيد فكرته ، وقد أجاد فيه عرض الحقائق التى جمعها فى رحلاته الكشفية •

وفكرة الصراع على الوجود التى هاجمها كروبتكين شاعت فى القرن التاسع عشر وأصبحت مسوغا لاتباع سياسة العنف والأساليب المكيافيلية التى تبرر الوسائل التى يتبعها طلاب السيطرة والنزاعون الى العدوان ، وكانت من أسباب التدهور فى الآداب السياسة الذى ظهرت آثاره السيئة فى منتصف ذلك القرن بوجه خاص ، وأصبحت كذلك حجة تستند عليها الحكومات التى تؤثر القمع والظلم على العدالة والحرية •

وقد أوضح كروبتكين فى كتابه القيم ان الانسان فى مختلف مراحل التاريخ كان على الدوام حيوانا اجتماعيا ، وانه دخل فى مجال التطور بوصفه من الأنواع الاجتماعية ، وأثبت ان التعاون هو أساس المجتمعات البشرية ، وأظهر ان العهود التاريخية التى سيطر فيها التعاون على حياة المجتمع بدلا من السلطة القاهرة كانت عصور التقدم وازدهار الثقافة وتحسن الأحوال البشرية ، ويرى كروبتكين أنه يمكن أن نفتنى أثر النزعة التعاونية فى البشر والعالم الحيوانى من أدنى مراحل الوجود والحياة الى العصر الحاضر ، وقد أكدت الأديان جميعها هذه النزعة ، وقد امتدت النزعة التعاونية من الأسرة

الى القبيلة ، ومن القبيلة الى الأمة ، ومثلها
الأعلى أن تشمل البشر جميعا ، وقد تتبع أثر الروح
التعاونية فى البوذية والمسيحية والاسلام وفى
الحركات الاصلاحية والاتجاهات الفلسفية
والمذاهب الاخلاقية .

وساءت صحته فى السنوات الأخيرة من حياته ،
وقد باعدت الحرب الكبرى الأولى التى نشبت
فى سنة ١٩١٤ ما بينه وبين أصحابه الفوضويين
فقد كان بدافع ميله الى السلم وايثاره التعاون
بين البشر من كارهى الحروب ، وكان يمقت النزعة
الحرية فى الشعب الألمانى ويعتقد مثل بعض
الأحرار الروسين فى عصره أن أسوأ عناصر
القيصرية مستمدة من ألمانيا ونزعتها الاوتقراطية ،
وقد أكدتها فى السياسة الروسية الملكة كاترين
الثانية الألمانية الأصل كما قواها القيصر نيقولا
الأول الذى كان معجبا بالروح الحرية الألمانية
وكان كروبتيكين يرى ان الألمان يريدون الحرب
لكى يسيطروا على أوروبا ، وأن هذه السيطرة
ستكون عقبة فى سبيل الحرية ، ولذلك مال الى
جانب الحلفاء ضد ما عده العدوان
الألمانى ، وحينما جاءت الأخبار فى سنة ١٩١٧
بأن الشعب الروسى قد ثار على الحكم القيصرى
سره ذلك فقد حرر الشعب الروسى نفسه من
استبداد القياصرة ، ويمكن أن يتيح له ذلك وقف
الأيام الباقية له فى الحياة على خدمة بلاده ، وفى
صيف سنة ١٩١٧ غادر انجلترا ووصل الى
بتروغراد ، ورحب كرنسكى بقدومه ، ولم يكن على
بينه من الأحوال السائدة فى روسيا فقد طال
غيابه عنها ، وكان يود أن يمضى الشعب فى محاربة
ألمانيا فى حين أن الشعب الروسى كان كارها للحرب ،
وقد كانت أكثر الأحزاب السياسية الروسية لا تريد

المضى فى الحرب وأبعد ذلك ما بينه وبين زعماء
تلك الأحزاب ، ومنهم الحزب الفوضوى ، وقد
أدى ذلك الى تدهور مكاتته السياسية وذهاب
جهوده عبثا .

وقد أسفرت ثورة أكتوبر عن استيلاء المزارعين
على الارض والمصانع كما قدر الفوضويون الذى
اشتركوا فى تلك الثورة ، وحينما استولى
البلاشفة على مقاليد السلطة عاد الاتفاق بين
الفوضويين وكروبتيكين ، واضطر الفوضويون
الى أن ينفقوا من البلاشفة موقف العداء ككراهم
للدكتاتورية التى فرضها البلاشفة ، واضطهد
الكثيرون من الفوضويين ، وعارض كروبتيكين
السياسة التى اتبعها البلاشفة ، وقابل لينين غير مرة
ليبين له وجهة نظره ، وأحجم البلاشفة عن اضطهاده
لشهرته العالمية ولم يكف عن التنديد بالحكم
البلفشى ، ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح ،
وكان حينذاك مشغولا بانجاز كتابه القيم عن
الأخلاق ، ولكن ضعف صحته لم يمكنه من اتمامه
وقد أدركته الوفاة يوم ٨ فبراير سنة ١٩٢١ وبلغ
طول موكب جنازته خمسة أميال من المشيعين
وكانوا يحملون الأعلام السوداء ، وكان المكتوب على
تلك الأعلام « لا حرية حيث توجد السلطة »
وهكذا كانت خاتمة آخر الزعماء الفوضويين
الكبار ، وأهم ما أسهم به كروبتيكين فى تاريخ
التفكير الفوضوى أنه أقامه على أساس علمى ،
وقد أخذ عليه نقاده انه كان متفائلا أكثر مما يلزم ، وان
حماسه وحده كانا فى بعض المواقف والاتجاهات
يتغلبان على الناحية العلمية والأسلوب الموضوعى
فى تفكيره ، واخلاصه فى تفكيره وتسامى شخصيته
على العيوب والشبهات ونبل أخلاقه وكرم طباعه
وصدق شجاعته وتضحيته بالمال والراحة فى سبيل

المبدأ والفكرة موضع تقدير جميع الذين تناولوا سيرته ودرسوا حياته وأفكاره .

وقد تناول في الفصل الأول والفصل الثانى من كتابه عن « التعاون المتبادل » التعاون بين الحيوانات وبدأ حديثه عن التعاون في عالم النمل وعالم النحل وانتقل بعد ذلك الى الحديث عن التعاون بين الطيور والأسماك والكراكي والبيغاوات وهجرات الطيور والحيوانات الثديية وتجمعات الذئاب والسباع والحيوانات القارضة وأثر التعاون في الصراع على الحياة •

وتناول في الفصل الثالث الأصل القبلى للمجتمع الانسانى وتحدث في هذا الفصل عن قبائل البشمان والهوتنتوت والبايواز والاسكيمو وفهم هذه القبائل للتعاون والعدالة .

وفي الفصل الرابع تحدث عن الهجرات العظيمة والنظم التى استلزمته حركات الهجرة والعمل التعاونى الذى صحبها والقوانين السائدة بين القبائل وتحدث في هذا الفصل عن سكان المناطق الجبلية في بلاد القوقاز •

وفي الفصل الخامس بين تطور السلطة في الجماعة الهمجية والعبودية في القرى وثورة المدن المحصنة وتحريرها ونشوء نظام النقابات الطائفية وتنظيمها للصناعة والتجارة •

وفي الفصل السادس أشار الى أوجه الشبه ونواحى الاختلاف بين مدن العصور الوسطى ، وموقف المدن من المزارعين ومحاولتها تحريرهم ، وظهور السادة - اللوردات - وما قدمته مدن العصور الوسطى للفن والثقافة وسبب ما حاق بها من التأخر والتدهور •

وفي الفصل السابع تحدث عن الثورات في عهد سيطرة الدولة ونظم التعاون المتبادل في عصره ومجتمع القرية وجهاده ومقاومته محاولة الدولة الغاء واختار أمثلة لذلك من سويسرة وفرنسا وألمانيا وروسيا •

والفصل الثامن وهو الأخير وصف اتحادات العمال بعد القضاء على النقابات وجهاد الاتحادات واطر التعاون المتبادل في الاضرابات .

وفي الفصل الختامى يقول كروبتكين « رأينا فى عالم الحيوان أن معظم الأنواع تعيش في جماعات وأنها تجد في الاجتماع خير الأسلحة لمعركة الصراع من أجل البقاء ، ومفهوم هذا الصراع بالمعنى الداروينى الواسع ليس مجرد الصراع من أجل أسباب البقاء وإنما هو صراع ضد كل الأحوال الطبيعية غير الملائمة للأنواع ، والأنواع الحيوانية التى يقل فيها الصراع بين الأفراد الى أضييق الحدود وممارسة التعاون المتبادل قد بلغت أقصى مراحل التقدم وهى الأنواع الناجحة والأكثر قابلية للتقدم ، فالحماية المتبادلة التى يحصل عليها الفرد في هذه الحالة وامكان الوصول الى الشيخوخة وجمع التجارب والتقدم العقلى الأسمى وزيادة نمو العادات الاجتماعية كل ذلك يضمن المحافظة على النوع وتكاثره وزيادة تقدمه في حركة التطور ، والأنواع غير الاجتماعية على عكس ذلك مقضى عليها بالهلاك •

ويسترسل كروبتكين قائلاً « اذا اتجهنا بعد ذلك الى الانسان نجد انه يعيش في بطون وقبائل منذ فجر العصر الحجري ، ونرى سلسلة طويلة من القوانين الاجتماعية في مرحلة الوحشية الأدنى في البطون والقبائل ، ونجد أن العادات القبلية

الأولى والتقاليد السائدة توضح لبنى الانسان جرثومة كل النظم التى كان لها بعد ذلك الصدارة فى حركة التقدم ، ومن القبيلة المتوحشة تمت جماعة القرية المتوحشة وتبع ذلك ظهور مجموعة من العادات والتقاليد والنظم أوسع مدى وأكثر عددا لا تزال حتى اليوم ظاهرة فى حياتنا ، وقد تكونت جميعها فى ظل الامتلاك العام لجزء من الأرض ودفاع الجميع عنه بموجب قوانين اتحاد القرى » •

ويرى كروبتكين أن زيادة سيطرة الدولة لم تستطع القضاء على الروح التعاونية ، وهو يقول فى كتابه « تقوم الدولة على أساس مجموعات من الأفراد لا تربطها بعضها ببعض رابطة متينة ، ورابطة الدولة لا تلبى الرغبة فى الاتحاد التى ينزع اليها الناس ، ولذلك نرى أن الميل الى التعاون يتخطى قيود الدولة ويؤكد ظهوره فى الجماعات التى تتناول أكثر نواحي الحياة •

ولا ينكر كروبتكين الدور الذى لعبه فى التاريخ حرص الفرد على تأكيد سلطته وفرض شخصيته سواء فى مجال الاقتصاد أو السياسة ، وهو يرى أن التاريخ المكتوب عنى بوجه خاص بأخبار القوة الحرية والحكم الاوتقراطى وأشاد بأثر الأفراد البارزين والطبقات الثرية ، وأهمل الإشارة الى أثر التعاون فى التقدم برغم أن التعاون كان عاملا هاما فى تطور عالم الحيوان وفى المجتمعات البشرية •

ويقول كروبتكين « ان ممارسة التعاون المتبادل والتقدم الذى تبعها قد أوجدت ظروف حياة المجتمع الذى استطاع فيه الانسان انماء الفنون وتوسيع نطاق المعرفة والعصور التى تقدمت

فيها النظم القائمة على التعاون المتبادل كانت عصور التقدم فى الفنون والصناعة والعلم : ودراسة الحياة الداخلية فى مدن العصر الوسيط وفى المدن اليونانية القديمة يرينا حقيقة ان التعاون الذى كان سائدا فى النقابات وفى العشائر فى المدن اليونانية قدم للانسانية أعظم عصرين فى التاريخ وهما عصر المدينة اليونانية القديمة وعصر مدن العصر الوسيط : فى حين أن القضاء على ذلك النظام التعاونى تبعه الانحطاط السريع •

والتعاون المتبادل من أسباب تقدم الاختراع وحث الأذهان على الابتكار ويقول كروبتكين « حينما نغزو التقدم الصناعى فى هذا القرن (القرن التاسع عشر) الى الحرب القائمة بين الناس تشبه فى ذلك الرجل الذى يجهل سبب سقوط المطر فيعزوه الى الفريسة التى قدمها قربانا لوثنه المصنوع من الصلصال ، لأن التقدم الصناعى مثل كل غزو للطبيعة التعاون المتبادل والاتصال القريب أعظم فائدة وأقوى أثرا فيه من الصراع المتبادل •

وفى المقدمة التى صدر بها الطبعة التى ظهرت من الكتاب فى أثناء الحرب الكبرى الأولى يقول كروبتكين « قادة الفكر الحديث المعاصر لا يزالون نزاعين الى رأى القائل ان الجماعات ليس لها أهمية تستحق الذكر فى تطور نظم الانسان الاجتماعية وان كل تقدم تم فى هذا الاتجاه مرجعه الى المثقفين والزعماء السياسيين والقادة الحريين الذين يتولون توجيه الجماعات التى ران عليها الجمود ، والحرب الحاضرة جعلت معظم الأمم الاوربية المتحضرة تحتك لا بحقائق الحرب وحدها بل كذلك بالآلوف من تأثيرها الجانبى فى الحياة اليومية ولا شك

فى ان هذا سيساعد على تغيير الآراء الشائعة ، وسيظهر مدى الحاجة الى عبقرية الجماعة الخلاقة البناءة حينما تمر الأمة بأزمة من الأزمات الحازبة فى تاريخها ، ولم تكن الجماعات التى مهدت السبيل لوقوع كارثة الحرب وأعدت أساليبها الوحشية ، لقد كان ذلك من تدبير حكماها وقادتها المثقفين ، ولم يكن لجماعات الشعب فى أى مكان صوت فى اعداد المذبحة الراهنة ولا فى تهئية طرائق الحرب الحديثة التى تشمل عدم اكتراث تام لكل ما نعهده خير تراث للحضارة ، واذا لم يكن القضاء على هذا التراث كاملا ، واذا استطاعت الانسانية برغم الجرائم التى ارتكبت فى هذه الحرب أن تثق بأن تعاليم التضامن الانسانى وتقاليده ستخرج سليمة من هذه المحنة فاننا سنجد فى ذلك آلاف الأدلة على ذلك التعاون الانسانى المتبادل الخالص الذى أدت الحديث حوله فى هذا الكتاب .

ويقول كروبتكين فى مقدمة الكتاب مشيرا الى الرحلات الكشفية التى قام بها فى مطالع حياته وكانت من أسباب اتجاه تفكيره الى فكرة «التعاون المتبادل» مظهران من مظاهر الحياة الحيوانية تركا فى نفسى تأثيرا شديدا فى أثناء الرحلات التى قمت بها فى شبابى فى شرقى سيبيريا وشمال منشوريا ، أحدهما شدة قسوة الصراع من أجل الحياة الذى تقوم به أنواع من الحيوانات ضد الطبيعة الصارمة العنيفة وتدمير الحياة الضخم المتوالى من جراء العوامل الطبيعية ، وندرة الحياة نتيجة لذلك فى أصقاع شاسعة رأيتها بعينى ، والمظهر الثانى هو أنه حتى فى تلك النواحي القليلة التى كانت غاصة بالحياة الحيوانية لم أستطع أن أجد تلك المعركة الشديدة الوطأة من أجل أسباب

البقاء برغم شدة اهتمامى بالبحث عنها بين الحيوانات من جنس واحد ، وكان أكثر الداروينيين - وأن لم يكن دارون نفسه دائما من أصحاب هذا الرأى - يجدونها الخاصة الغالبة فى الصراع من أجل البقاء والعامل الرئيسى فى التطور » .

ويمضى كروبتكين فى الحديث عن مشاهداته فى تلك الانحاء فيقول « وحيشما كنت أجد الحياة الحيوانية متكاثرة مثل شواطئ البحيرات حيث كان يوجد عشرات من الأنواع وملايين من الأفراد معا تتعهد صغارها ، وفى مستعمرات الحيوانات القارضة وفى هجرات الطيور التى كانت تحدث وبخاصة هجرة الأبال التى رأيتها فى أمور والتى فى أثنائها تجيء عشرات آلاف من هذه الحيوانات الذكية معا من أصقاع شاسعة تحت الخطى قبل مجيء الثلج العميق لكى تعبر نهر أمور فى أضيق مجراه - وفى كل هذه المشاهد التى مرت أمام عينى وجدت التعاون المتبادل بين الحيوان والمساعدة المتبادلة الى أقصى حد مما جعلنى أرى فيها سمة عظيمة الأهمية فى المحافظة على الحياة والبقاء على الأنواع وتطورها .

وهذه المشاهدات الكثيرة المتوالية حملته على أن يقول « ونتيجة لذلك حينما اتجه تفكيرى بعد ذلك الى بحث العلاقة بين الدارونية وعلم الاجتماع لم أستطع الموافقة على المؤلفات والرسائل التى كتبت فى هذا الموضوع العظيم ، فقد حاولت جميعها أن تثبت أن الانسان بما أوتى من ذكاء أسمى ومعرفة أوسع قد يستطيع أن يلطف من قسوة الصراع على الحياة بين اخوانه البشر ، ولكن مؤلفيها جميعا كانوا يسلّمون بان الصراع على الوجود القائم بين كل حيون وضريبه من النوع نفسه وبين كل انسان وأى انسان آخر هو قانون

الطبيعة ، ولم أستطع قبول هذا الرأى لأنى كنت مقتنعا بأن التسليم بوجود حرب داخلية من أجل الحياة فى داخل الاجناس وآن هذه الحرب هى باعث التقدم وشرطه كآن معناه التسليم بشئ لم يقيم عليه الدليل فحسب بل يعوزه التأكيد من المشاهدة المباشرة» •

ويشير الى محاضرة الأستاذ كيسلر قائلاً « والمحاضرة التى ألقاها الأستاذ كيسلر عالم علم الحيوان المعروف وهو عميد جامعة بطرسبرج فى يناير سنة ١٨٨٠ عن ، قانون التعاون المتبادل ، بدا لى أنها تلقى ضوءاً جديداً على الموضوع ، وفكرة كيسلر هى أنه الى جانب قانون الصراع المتبادل يوجد فى الطبيعة قانون التعاون المتبادل وهذا

القانون أعظم أهمية بكثير فى نجاح معركة الحياة وبخاصة فى تطور الانواع التقدمى من قانون الصراع المتبادل ، وقد بدا أن هذا الرأى صحيح الصحة كلها وعظيم الأهمية ولذلك منذ عرفته فى سنة ١٨٨٣ بدأت أجمع المواد لانماء الفكرة التى ذكرها كيسلر فى المحاضرة بصورة موجزة ، ولم يعش لانماء الفكرة فقد توفى فى سنة ١٨٨١ »

وكتاب التعاون المتبادل حافل بالأفكار والنظرات والتجارب والمشاهدات فى أسلوب واضح ومنطق متناسك مما جعله من المراجع الهامة فى علم الاجتماع والجغرافيا والسياسة وبرغم مضى أكثر من نصف قرن على تأليفه لا يزال من المراجع المحترمة المأثورة .

على أدهم